عندما قال الطاغية : " باللّه لا تنفضوا قبل أن تضمونا إليكم " !!

ذات نهـار صافٍ من ربيع عـام 1958م، وبينما كان الزعيمان العربيان الراحـلان جمال عبدالناصر وشـكري القوتلي يعقدان اجتماعـاً لهمـا، تمهيداً لإعـلان وحـدة مصر وسـوريا، وقيام الجمهوريـة العربية المتحـدة، وردت إليهما برقية مسـتعجلة بتوقيع أمير المؤمنيـن الناصر لدين اللّه الإمام أحمد بن يحيى حميـد الدين ملك المملكة المتوكلية اليمنية جاء فيها : «باللّه لا تنفضوا قبل أن تضمونا إليكم»!!

وعلى الفور اتفق الزعيمان الراحلان والدهشـة تكتنفهما على إرسـال برقية إلى الإمام أحمد تسـتوضح مقصده، فكان أن رد الإمام ببرقية أخرى جاء فيها :

أحمد الحبيشي

« لقد استخرت النجوم، وبعد الحساب الطويل، تبيّن أنّ نجمكم يكسف نجم الآخرين، ويغطي عليه.. ولهذا نريد أن ننضم إليكم، والولد البدر فـي طريقه لعندكم لبحث الأمور ونقل رأينا ».!!

مـن نافل القول إنّ نظـام بيت حميد الديـن الذي أحاط حكمـه الكهنوتي الاسـتبدادي بسـياج كثيف مـن الجهل والتخلف والعزلة، كان يجد في نشر الخرافات والشعوذة، ومحاربة الانفتـاح على العلوم العصرية والنظم الحديثة والأفـكار الإصلاحية، وسـيلة لتجريد الوعـي الاجتماعي الشعبي من الأدوات المعرفية التي تهدد بتقويض أسس الاستبداد.

وعليه .. فلم يكن مستغرباً أن يؤدي تراكم التعاطي مع الخرافات والشـعوذة والعزلة إلى ولادة وعي مشـوّه قام على تصورات سـاذجة وغير واقعيـة للعالـم الخارجـي، وأدى في نهاية المطاف إلى تكريس عزلة ذلـك النظام وسقوطه.

تذكـرت هـذه الواقعـة وأنـا أطالـع بعـض الكتـب والمطبوعات والأشرطة التي امتلأت بها الأسواق العربية طوال العقديـن الماضيين، وتتلخـص محتوياتهـا فـي الترويج للخوارق والمعجزات والخرافـات، حتى كادت هذه الدوريات تطغى على مختلف أشـكال التثقيـف والتعليـم والتوعيـة، وتهـدد بإفقـار الوعي الشـعبي من الأدوات المعرفية اللازمة لاستنهاض دور العقل في إعادة اكتشاف الواقع وامتلاك القدرة على تغييره.

النظرة التأملية لتاريخ البشرية تدل على أنّ عهود انحطاط وسقوط العديد من الدول والحضارات، وبروز العهود التي سادها الظلام والانقطاع الحضاري والجمود والتخلف، كانت متلازمة مع غياب الحريات وتراجع دور العقل العلمي، وقمع الفكر واضطهاد المفكرين وتدجين بعضهم، في أحسن الأحوال لتبرير كل ما هو قائم، حيث كانت النتيجة دائماً بروز سياسات تستند إلى عكازة قوامها الفقهاء والمنجمون والعرافون والمشعوذون وبلداء التفكير وسطحيو الثقافة وعديمو المواهب وغيرهم من الذين يستحيل حضورهم في ظل التعددية القائمة على حرية التفكير والإبداع والحوار

اللافـت للانتباه أنّ هـذا الغثاء من الكتـب والمطبوعات والأشـرطة تزامن مع الحملة الواسـعة التي قادتها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) ضد الغزو السوفيتي لأفغانستان، واستهدفت حشد وتحفيز المتطوعين للجهاد في أفغانسـتان من مختلف البلدان العربية والإسـلامية، حيث كانت تلك الكتب والمطبوعات والأشـرطة جزءاً من ماكنة الدعاية والتحريض لما كان (الاخوان المسـلمون) وضباط المخابرات المركزية الأميركية يسمونه "الجهاد المقدس" ضد القوات السـوفيتية الغازية في أفغانستان من جهة، وضد انتشار الأيديولوجيا الشيوعية في العالم العربي والإسلامي من جهة أخرى !!

بوسع المرء أن يلاحظ رواسب التأثير السلبي لتلك الحملة الدعائية على تفكير وسـلوك قيادة حركة "طالبان" أثناء إدارتها للمعركة التي خاضتها ضد الآلة العسكرية الجبارة للولايات المتحدة الأمريكية في خريف 2001م قبل سقوط نظام طالبان، حيث نقل مراسل قناة "الجزيرة" في كابول تيسـير علوني على لسـان كبار قادة "طالبـان" قبل بدء الهجمات العسكرية الجوية الأمريكية، أنّهم قادرون على مواجهة التفوق العسكري للعدو بسلاح الغيب والمعجزات الإلهية التي هزمت القوات السوفيتية الجبارة أثناء مرحلة "الجهاد" في الثمانينات.

كانت الساحة الأفغانية في تلك الفترة مليئة بالمطبوعات والأشرطة والأحاديث حول الخوارق والمعجزات التي كانت تسـاند المجاهديـن الأفغان ذوي الأسـلحة الخفيفة في مواجهـة الآلـة العسـكرية السـوفيتية المتطورة، حيث كان يجري الترويج لقصص أسـطورية لا تصمـد أمـام المنهج العلمـي، مثل ظهور ثعبان أقرع ابتلع طاقم دبابة سـوفيتية كادت أن تفتـك ببعض المجاهدين، وانطلاق طيـور بريـة تحولـت فجأة إلى صواريخ توّلت إسـقاط طائـرات سـوفيتية كانـت تغير على قاعدة عسـكرية للمجاهديـن في جبال ولاية ننغرهـار.. ونهوض مفاجئ لمجاهـد عـربـي (شـهيد) تحـدث أمـام مشـيعيه من المجاهدين (الأفغان العرب) بأنّـه في الجنة محـاط بكوكبة من بنات الحور ويدعوهم للحـاق به كـي ينعموا معه بحيـاة لا مثيل لهـا، ثم يعود إلـى جثمانه في الجنـازة مرة أخرى قبل دفنه.. وانتشـار روائح المسـك الزكية من جثث بعـض المجاهدين الذين استشهدوا في مكان قصي في أحد المرتفعات الجبلية في وادي با نشـير، ولم يعرف المجاهدون بمصيرهم إلا بعد عدة أسابيع من استشهادهم ، حيث دلتهم على موقع تلك الجثث روائح المسـك المنبعثة منها، وفوجئوا عند العثور عليها بعـد عدة أسـابيع بأنّها لم تتعفن بـل ظلت تعبق بروائح المسك والعود حتى مواراتها الترى!!؟

في الاتجاه نفسه انتشرت في الأسواق العربية عشرات الكتب والمطبوعـات التي تتحدث عن قصـص الجان في عالم الإنـس، وأغر بها كتـاب بعنوان "حـوار صحفي مع الجني مصطفى كنجور" وكتاب حول (خلوة طالبة جامعية متبرجة مع الأسـتاذ الجني دلفوس) ، وكتـاب "اعترافات عالم ذرة روسي أمام الثعبان الأقرع في القبر". وغير ذلك من الكتب والمطبوعات والأشـرطة الخرافية التي تكرس اغتراب العقـل وتزييف الوعي في عالم يشـهد متغيرات عاصفة في ميادين العلم والتكنولوجيا والمعارف الحديثة والسياسة والاقتصاد.

لا ريب فـي أنّ صفحات التاريخ العربي الحديث تخلو من دور الخرافـات والخوارق في توجيه السياسـة، باسـتثناء واقعة برقية أميـر المؤمنين في دولة بيـت حميد الدين، وواقعة أمير المؤمنين في دولة "طالبان" وما رافق "الجهاد" الأفغاني من كتب وأشرطة تكرس لتغييب العقل وترويج لخرافات والمعجـزات الخارقـة.. غير أنّ ذلـك لا يعني أنّ الفكـر – بمعنى العقـل العلمـي – كان دائمـاً يقف خلف السياسة ويرتاد آفاقها في العالم الإسلامي عموماً والعربي خصوصاً.

والثابت إنّ خبرة الحياة الإنسانية، أثبتت حقيقة أنّ ارتياد الآفاق مهمة صعبة يستحيل إنجازها خارج دائرة النشاط العقلي للإنسان، حيث يصعب على العرافين وقراء النجوم والأبـراج ومروجي كتب الخرافات والمعجزات ــ بالإضافة إلى غيرهم من ذوي التفكير السـلفي والجمود العقائدي ودُعاة الإقامة الدائمة في الماضـي ــ إنجاز مهمة كبرى كهذه التي يتوقف عليها مستقبل الإنسان ومصير الشعوب والأمم والأوطان.

بيد أنّ الجوهري في العَلاقة بين الفكر والسياسة، يتمثل في الوحدة العضوية لوجهي هذه العَلاقة.. وقد سجل لنا التاريخ الإنساني نماذج مختلفة لهذه العلاقة، تراوحت بين وقوف المفكر ضد سلطة ا لدولة أو التواؤم معها، سواء كان هذا التواؤم قائماً على الاقتنـاع كما يرى ابن عبدربه في "العقد الفريد" أو الانتهازية بحسـب ميكافيللي في كتابه "الأمير".. أو كان هذا التواؤم قائماً على النصح والإرشـاد والتنويـر على طريقة حـركات الإصلاح الدينـي والتنوير الفكري في عصر النهضة.

ويمكن القول إنّ التاريخ لم يفسح مكاناً خالداً في أسفاره إلا لأولئك الذين حاولوا تقديم إجابات على الأسـئلة ا لتي طرحتها الحياة في مختلف العصور والأزمة.. وفي الاتجاه نفسه فإنّ التاريخ يسجل لنا أيضاً أنّ الإنسان لم يسمح في إنتاج وتجديد حضارته إلا في ظل المناخات التي تتيح حرية التفكير وشـفافية الحوار، وعلنية النتائج والاستخلاصات والتوقعـات.. وتبعاً لذلك فإنّ الحضارات التي احتلت مكاناً مرموقاً فـي التاريخ كانـت ثمرة للسياسـة التي جمعتها بالفكـر وحـدة أصيلة أدت علـى عقلنة عمليـات التغيير، بمعنى حضور العقـل العلمي النقدي في مجرى نشـاط الناس الواعي والهادف.

ولا نبالغ حين نقول بأنّ النظرة التأملية لتاريخ البشرية تـدل على أنّ عهود انحطاط وسـقوط العديـد من الدول والحضارات، وبروز العهود التي سادها الظلام والانقطاع الحضـاري والجمـود والتخلـف، كانت متلازمـة مع غياب الحريات وتراجع دور العقل العلمي، وقمع الفكر واضطهاد المفكرين وتدجين بعضهم، في أحسـن الأحـوال لتبرير كل مـا هـو قائـم، حيـث كانـت النتيجـة دائمـاً بروز سياسات تسـتند إلى عكازة قوامهـا الفقهاء و المنجمون والعرافـون والمشـعوذون وبلـداء التفكيـر وسـطحيو الثقافـة وعديمـو المواهب وغيرهم من الذين يستحيل حضورهم في ظل التعددية القائمة علـى حرية التفكير والإبداع والحوار.

إذا أردنا تصحيـح العَلاقة بيـن الفكـر والسياسـة في العالم العربي والإسـلامي، وتأميـن الـدور الطليعـي والمقـدام للعقـل والعلـم والفكـر، فإننا لن نسـتطيع بلوغ ذلك بدون الإمساك بأبرز حلقات الأزمة التي يعانيها الوضـع العربـي والإسـلامي الراهـن كمدخـل لتقويمه تقويماً سليماً.. ولعل أبرز هذه الحلقات هي أهمية إشاعة الديمقراطية وممارسة العلنية ومحاصرة العقلية القمعية الاستبدادية التي تستبدل العقل بالنقل والحوار بالإملاء والاحتواء والحرية بالقمع والاستبداد والاتهامات والأحكام الجاهزة.. حيث من شـأن إشـاعة الديمقراطية وممارسة العلنية واحترام حرية التفكير أن تؤمن صياغة علاقة حية بين الفكر السياسـي والواقع العربي والإسلامي الراهن كشرطٍ لاستشـراف الآفاق وبلوغها، ومعالجة إشكاليات التخلـف وبضمنهـا إشـكاليات العَلاقـة بيـن المفكرين والمثقفيـن بالسـلطة السياسـية فـي العالـم العربـي والإسلامي.

والحال أنّ جانباً من علاقة المثقف بالسـلطة في العالم العربي والإسلامي تتأزم عندما تتسم بالموقف النقدي .. وبالقدر نفسه فإنّ جانباً من اسـتخدام موقف نقدي إزاء الواقع يصاب أحياناً بالجمود والنظرة المدرسية مما يقود إلى الانعزال والاغتراب عن الواقع أو القفز عليه.. وعندما يتخلى بعض المثقفين عن قيم التحديث والتجديد فإنهم يتجهون الى السلفية ويراهنون على الاقامة الدائمة في الماضي مما يقود إلى دخولهم في أزمة مع العصر.

من الضرورة بمكان تصحيح العَلاقة بين مختلف التيارات الفكرية في الساحة العربية كمدخل لتصحيح العلاقة بين الفكر والسياسة، وذلك من خلال تصفية العقلية الشمولية القمعية التي تزعم باحتكار الحقيقة.. إذ أنّ غياب الحوار عن حياتنا يدل على أننا لسنا أحراراً في تفكيرنا، ولا نسلم بالحق في التفكير الحر وإبداء الرأي المستقل والمتميز.

لا ريـب فـي أنّ العقليـة القمعية الشـمولية نشـرت ظلالاً قاتمة وخلقت أوضاعاً مدمرة في كثيرٍ من ساحات العالـم العربيّ والإسـلامي على النحو الذي تجسـد في وقائـع مأسـاوية نجمت عن محاولـة فرض بنـى فكرية وثقافيـة جامـدة وجاهـزة، والسعي لإعادة صياغة وعي الناس فـي ضوئها، وتنميط طريقة حياتهم داخل قوالبها وإلزام المجتمع بها كحقيقةٍ نهائيـة ومطلقة.. وممارسـة الإرهاب الفكـري ومختلف أشكال الملاحقة والبطش ضد كل من يرفض تعليب عقله وسلوكه داخل تلك القوالب الجاهزة والبالية والمتحجرة .

في الاتجاه نفسه، نحن مُطالبون أيضاً بتصحيح العَلاقة التي تربط المفكريـن والمثقفيـن بمجتمعهم وبالناس عموماً، وتحويلها من عَلاقة عمودية قائمة على التحدث إلى الناس بهدف تبرير وشرح تصورات جاهزة إلى علاقة أفقية تتحدث مع الناس ولا تتحدث إليهم.. تطرح أسئلة ولا تدعي امتلاك أجوبة جاهزة عنها.

بهذه الأولويـات نضمن إيجاد مناخات الإبـداع.. وعقلنة عمليات التغيير.. وبهذه الأولويات أيضاً نضمن بناء نسقٍ جديد للعَلاقة الحية بين الفكر والسياسة العملية وصولاً إلـى اسـتنهاض دور العقل النقـدي في تنـاول متغيرات الحياة.. وتناقضات الحضـارة.. وتحديات العصر.. وهو ما لا يمكن تحقيقه بـدون إعادة الاعتبـار للعقل في العالم العربي والإسلامي، بعد أن التبست الأمور .. وتداخلت فيها ما لا تنتمي إليه من الخرافات والشعوذات والأفكار البليدة والعاجزة.

الساحة الأفغانية كانت مليئة بالمطبوعات والأشرطة والأحاديث حول الخوارق والمعجزات التي كانت تساند (المجاهدين العرب و الأفغان) ذوي الأسلحة الخفيفة في مواجهة الآلة العسكرية السوفيتية المتطورة، حيث كان يجري الترويج لقصص أسطورية لا تصمد أمام المنهج العلمي، مثل ظهور ثعبان أقرع ابتلع طاقم دبابة سوفيتية كادت أن تفتك ببعض المجاهدين، وانطلاق طيور برية تحولت فجأة إلى صواريخ أسقطت طائرات سوفيتية كانت تغير على قاعدة عسكرية للمجاهدين في جبال ولاية ننغرهار.. ونهوض مفاجئ لمجاهد شهيد تحدث أمام مشيعيه من المجاهدين بأنّه في الجنة محاط بكوكبة من بنات الحور ويدعوهم إلى اللحاق به كي ينعموا معه بحياة لا مثيل لها، ثم يعود إلى جثمانه مرة أخرى قبل دفنه !!

عن / صحيفة (26 سبتمبر)

الإسلام: الأصل والصورة!

د. بهجت قرني

هـذه مقالـة خلافيـة وحتى حساسـة قـد تُثير حفيظـة بعـض إخواني من المسلمين، ونحن عادة فـي منتهـى الحساسـية فيما يتعلق بديننا، والذي هو جزء مهم من هويتنا، بـل إن حساسـيتنا تزداد هـذه الأيـام فـي الوقت الذي يـزداد فيـه الهجوم على الإسلام والمسلمين وضرب الحصـار حولهم، ولكن ماذا نفعل لفك هذا الحصار، بدلاً من الاستسلام له وحتى مساعدته؟

موضوع المقالة مستوحى من رسالة زميلة فرنسية مستعربة لكنها غير مسلمة، ولم تكن فقط متعاطفة مع قضايانا من فلسـطين إلى العراق، ولكنها جاهدت ضد الرسـوم الدنماركية وكانت فـي مقدمة صفوف المنتقدين لبعض مظاهر العنصرية الأوروبية.

ورغم هذا التعاطف، بل وربما بسـببه، فإن رسالتها غاضبة، وسـبب غضبها هو تصريح الشـيخ اللحيدان حول إباحة دم بعض أصحـاب الفضائيات التي يعتقد أنها تحض على الإباحة والإفساد. وقد يكون كثير من الإعلام الغربـي -الذي هو غالباً فـي البحث عن أخبار مثيـرة- قد قام بتحريـف هذه الفتـوى أو وضعها في غير سياقها، لكن زميلتي الفرنسية أصابتها الدهشة والصدمة للطريقـة التي تكلم بها عضـو هيئة كبار العلماء السـعوديين ورئيس مجلس القضاء الأعلى، واعترفت بأنها وللمرة الأولى، لم تستطع أن تبرر هذه الفتوى أمـام جيرانهـا، والذين أصروا علـى نقطتين أساسيتين:

1 - إن بعض كبار المسلمين وقادتهم لا يستطيعون المصالحة مع الخـلاف في الرأي، في وقـت تتجه فيه معظـم المجتمعات في زمن العولمـة إلى اعتناق آراء مختلفة ومناقشتها، وهذا هو جوهر حرية التعبير.

2 - إن بعـض هـؤلاء الكبـار يعطون الانطبـاع بأن الوسيلة المثلى لإدارة الخلاف هي التخلص جسدياً من الخصم، أي قتله وذبحه، بدلاً مـن منازلته ومقارعته حجة بحجة، وبالتالي يصورون ويُسـوّقون الإسـلام على أنه دين دموي، ويدعمون بالتالي مَقولات معادية للإسـلام بأنه لم ينتشر إلا بقوة السـيف، وأن الجهاد ما هو إلا الحرب المقدسـة لإجبار الآخرين على تغيير معتقداتهم.

ومن الواضح أنه في مجتمع مدني عالمي تتصدر بنود أجندته قضايا مثل حقوق الإنسان وحرية التعبير، فإن هذه الصورة السلبية عن الإسـلام التي يساعد عليها بعض أئمتنا، تعتبر أكبر نصير لخصوم هذا الدين.

ما العمل إذن؟

1 - يجب أن نعترف بداية أن قدسـية القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة لا تنتقل بالضرورة إلى ما يقوله بعض الأئمة، وبالتالي يجب أن تكون «فتاواهم» محل جدل وخلاف، وحتى تفنيد، وخير مرشد لنا في هذا هو سـلوك النبي صلى اللّه عليه وسلم وتفرقته بين «المقدس» من أمور الدين الذي لا يجب المسـاس به، وأمور الدنيا التي يجب أن تناقش وتتطور.

2 - إن عمليـة التطـور هـذه تأتي من داخـل أروقة الإسـلام نفسـه وفتح باب الاجتهاد، ليـس بين الـ17 مليون مسلم في أوروبا، أو مسلمي أميركا أو كندا، بل في الدول الإسلامية أولاً وأساساً، وعلى أساس أن العالم في السنة الأولى الهجرية، كان مختلفاً عن العالم في سنة 1429 هجرية، وأن التحدي الأكبر للمسلمين هو كيفية التكيف والتغير مع المحافظة على الثوابت.

ويا حبذا لو قامت منظمات إسـلامية أو عربية -مثل المؤتمر الإسلامي، الأزهر الشريف، منتدى الاتحاد... بمواجهة تحدي التكيف مع المحافظة على الثوابت.

3 - أن يرتبط هذا التكيف بإستراتيجية واضحة فيما يسـمى «حوار الثقافات»، والذي يستمر لسنوات دون نتيجة واضحة.

باختصـار، لا يسـتطيع أي منـا - مسـلمين وأجانب متعاطفيـن- أن يحمي صورة الإسـلام عالمياً دون أن يكون هو في الأصل نفسه مساعداً لهذه الصورة.

باحث وأكاديمي عربي